

غادة بابل

La Belle de Babylone.

—٢—

انفردت شميرام في مخدعها وهي اشبه شيء بنجم الصباح المتلالي في الأفق:
 ربعة القوام ، علة الساعدين ، رخصة الجسد ، لدنة المعاطف ، جميلة الأنف
 كثبات جنسها الساميات ، حوراء البشرة ، دعباء ، وطفاء ، شعرها اسود حالك
 جنل ، قد ضفرته صغيرتين ، وعقبته حول راسها على شكل العقال ، وقذلوحتها
 شمس بابل ، وتنفقت الحمرة التي شربتها في دما حتى سرت في صروق خديها
 الأسيلين ، وصبتهم صبا لطيفا يخجل الورد منه ، وائر فيهما تراحم شعرها
 وهاجرة النهار ، فعلنهما لآلى من العرق حتى ليظن الناظر اليها انها حورية من
 حور الجنان . ثم اخفت تناجي نفسها بما يشبه هذا الاقوال :

مالك يا قلبي خائف في صدري ؟ وما لك يا محبتي تميميني بالاشباح
 والاخيلة ؟ كنت قبل اليوم لا اعرف لهم منبتا ، ولا للحزن موطننا ! فما انت
 ايها الحب حتى سلطت قفوس وحكمت فيقيت ؟ كنت احب شمشو حبا
 هادئا حب بنت الخال لابن عمها ، او حب الشقيقة لشقيقها . فاستمر ذلك
 الحب حتى استول الغرام على قلب خل فاستحكمت . وكيف حب العشيبة فاصبح
 لواعج هوى ، واضعت كل جارية مؤلمة . ألا ! أنا بنت اشرف اشراف بابل ،
 أنا بنت الدلال والترف . من ذا الذي ينقلني من هذا المأزق ؟ إذ لا قدرة لي على
 احتمال هذا الضيم ، ولا طاقة لي على ركوب هذا المركب الحشن ! فقد اريد
 الكون في عيني ، وانسلت عليهما سجع من الظلام فلا تبصران الشمس ولا
 تتمتعان بالنظر الى القمر والكواكب وهل في سماء الشيبية شمس غير شمشو .
 وهل في افق بابل قمر غير جيببي ، وأنى للكواكب ان تبقى في رقع السماع
 ولا تتوارى خجلا من سنانها . انت انت يا شمشو علة شقائي ... ما اسعد
 لشقاء في سبيل حبك . وما اسعني لو علمت الحياة فداء لك . ولكن بثت

السعادة التي يقضي نعيمها في البعد عنك . ما الحيلة في الاستيلاء على قلبك ؟ وكيف يكون عليك ان تتركني المومة بيد الأحرار .

وهب ان شمشو يوافقني في الحب والزواج . لكن هناك حبيته حترآفاتها تقف عقبة كؤودا في وجهنا . كيف اتخلص من مراقبتها وأدفع عني شرها ؟

ولما انت على ذكر حترآفويتها في الحب شعرت بانقباض شديد ولم تتمالك من ان تتنهد وتتففس الصعداء ثم استخرطت في البكاء فتساقطت دموعها تساقط الطل على الورد وتناثرت تناثر اللالي على الأرجوان فكفكت دموعها باصبعها ومسحت خديها بقطعة من نسيج كانت بيدها تريد خياطتها . فدخلت في هذه المطاوي والدتها ريماء ولحمت آثار البكاء عليها فاستقرت منها هذه الحال وقالت لها : بني ما الذي يبكيك ؟

شميرام سرايت حلما في الليل الماضي فازعجني وكدرني كل الكمر فتشاءمت منه . ريماء - وما هو حلمك ؟ فان كنت داعيا للقلق عمدنا الى الكهنة والسحرة والنجمين واتخذنا التعاويذ والطلاسم والرقى واتقينا شر الأرواح الشريرة وإلا فلا تكثرني له .

شميرام - رايت كلبا اسود دخل الهيكل وقلب تمثال الآله « مرووخ » وحطمه ورايت في غرفتي هذه طفلا بلا حنك ادخلته علي تنو .

ريماء - ان دخول الكلب الاسود في الهيكل يدل على ان اسس ذلك الهيكل غير مكنة تتداعي ؛ اما سقوط التمثال وتحطمه فيشير الى تنهؤ المملكة وزوال مجدها ؛ ويشير الطفل الذي لاحك له الى ان حياة الملك طويلة إلا ان البيت الذي ولد فيه ينقض حجرا حجرا . غير اني اسألك يا شميرام : هل كان الطفل ناقص الحنكين او احدهما . فاذا كان حنكه للأسفل فقط ناقصا فيدل على ان غلات هذه السنة لا تقبل .

شميرام - لا يا اماء ! انه ناقص الحنكين . ولكن كيف تعلمين وجود تنو في هذه الأمور وتوسطها في ادخال الطفل في غرفتي ؟

ريماة — ان الصور التي تراءت لك في الحلم والاشباح التي ظهرت لك في النوم لو رأيته في اليقظة . لدلت على ما فسرت له . ولا بد من ان التفسير يختلف على ما اعتقد ما بين الحلم واليقظة ، وبين الحالين فرق بين لا وسع لي على فك مفقده . فالكهنة المنجمون الكلدان متضلعون من هذه الاسرار وتفسيرها . فما علينا إلا الذهاب الى يروس الكاهن فيوقفنا على حقيقة الامر .

ثقل وقع اسم يروس على مسامع شميرام . وشعرت بضغط جديد على قلبها ولكنها تجلست واجابت والدتها قائلة: اني لا اركن الى اقاويل يروس ، لا بل انفر منه نفور الأطباء من بين يدي الصياد .

ريماة — يا بني . لا تستخفي بالكهنة . ولا تشكي في علمهم ، وقسورتهم على معرفة الاسرار وتفسير الاحلام اشهر من ان تذكر لان بينهم وبين الارواح صلات مجذولة القوي وثيقة العرى . انهم ينفخون ويضرون ؛ يقيمون ويقعدون ؛ يصلحون ويفسدون .

شميرام — لا اقول شيئا عن الكهنة وقدرتهم . لكن لا اتق في يروس وقد زاد الطين بلة في هذا الصباح . حين كنت في الهيكل . فانه تفرع بكل الوسائل ليسود على قلبي ، لا بل طاردني مطاردة المشاق لكنني وقفت في وجهه كالطود الشامخ . واذ لم يظفر مني بامنيته تزلف من نتو وجعلها صلة له في حاجته فارجمتها بخفي حين .

ريماة — لولا المخافة من حدوث شر مستطير لابلقت الحبر الى والدك اذيعز علينا نحن اشراف بابل ان نرى رجلا يخاطب بناتنا ونساءنا بهذا المعنى ، وما جزاؤه إلا القتل . غير اني اضرب صفحا عن ذكر هذا الحبر لوالدك حقنا للنساء .

شميرام — دعني يا والدتي اسم يروس الدجال واجعليه نسيا منسيا . فان ابنتك عفيفة الجانب تنزه عن المايب ولا تشغل بالها إلا بما يرضيك .

ريماة — بني . ان التصيب الذي اذخرته لك يفوق كل نصيب فانت خطيبة شمشو ابن عمك .

شميرام - انا اطوع اليك من نباتك ولكن شمشو ... وانزودقت عيناها بالدموع ثم قصت .

ريماة - مكنتي روعك واهدأي واقفي حملك علي وانا ادير الامر . ان شمشو لا يبعد عن امري وامر ابيك لما هو عليه من الارتباك في اسواله وفي اسباب عيشه ...

ولم تزد على هذا الكلام بل ارادت ان تلهي شميرام وتبعد عنها اضطرابها وروعها واشتغالها بموضوع يعذب فكرها . فقالت لها بيتي يجب علينا اليوم ان نمد كل شيء ، لان نهار الغد هو يوم راحة للنفس « اي سبتو » فيجب ان نطبخ الطبخ ونغير الثياب . اذ يحظر علينا القيام بمثل هذه الامور في يوم الراحة الذي يأتينا خمساً في كل شهر ، في اليوم السابع والرابع عشر والتاسع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين . كما انه يحظر تقديم القرابين ويمنع على الملك مخاطبة الشعب وركوب المركبات او القيام بأي عمل مدنياً كمن او عسكرياً . حتى الاستشفاء بالادوية .

شميرام - مالنا وذكر يوم الراحة . فكل ايامنا « سبتو » فلسنا نحن الذين نطبخ في البيت ولستنا ملوكاً نتكلم بالشعب او نركب العجلات (العرصات) . انا يا بني فقد غيرتها في هذا الصباح . واني قلقته البال غير مرتاحة لان اغيرها مرة ثانية واتزين باليسني الجميلة . فاعد الشهور واحصي الايام ، لان الحياة كلها تعب . وها اتنا في الشهر الثاني عشر من السنة ولم اذق لحظة من السعادة في نيساتو ، شهر الالهين اتو وبل ، ولا في آيارو المخصص بـ « آيا » ، ولم يكن « سوانو » والالهة حسن اسعد لي منهما . ولما جاء شهر دوزو ، قلت ان الاله اذار سيقشع هذه النمامة من قلبي ولكن خابت آمالي واخفت اعلى النفس بزوال الهوم في شهر آبو وعقدت جبل رجائي بملكمة القوس وهكذا نوات الشهور الولو وتسرينو وارخ سمنو وكسليمو ولم تشفع بي آلهتها باشر وشمش ومرووخ ونرجل وعقبا طينو وشباتو وهذا آدارو ولم تكن آلهتها باسكل وريمون والالهة السبعة العظيمة اوفق بي من سواهم فلا

ادري أي الايام يوم سعدي . ولا ادري كيف يقول النجمون ان في السنة ايام سعد وايام نحس . فهل سنتي كلها . ياترى . سداها بؤس ولحمتها شقاء ؟ وهل كلن يوم ولادتي يوم نحس ونحس ؟...

فقاطعتها والدتها ساخرة من اقوالها ونديها حالها وقالت لها ضاحكة : ان سعادتك في شهر «آراخو غرو» وهو الشهر الكيس الذي يضاف كل ست سنوات الى الاثني عشر شهرا . وسيأتي بعد السنة التالية . واعلمي . يا شميرام ان القال يختلف باختلاف العوامل التي تفعل في الحظوظ . فمن الاحلام ما هو من خواصي الهناء ومنه ما هو من بواصت الشقاء . وللحيوانات والطيور والاشكال الهندسية مؤثرات في حظوظ البشر . ولا يعلم ذلك إلا الالهة والكهنة والنجمون الراسخون في العلم . وازملك علما اتني قد استشرت السحرة والتجمين عن طالعك وعزموا الارواح على هذه التبة فطمأنوني وقالوا ان مستقبلك سعيد وان شمشو يكون نصيبك مهما فتلته فاتلات الحب والغرام عن غيرك . فثقي بي . وسأخذك بعد ظهر هذا اليوم الى التترة لترويح النفس فكوني على اهبة .



اخذت ريماء ابتها شميرام ومعها ثلة من السيد والجواري الى التترة إلا تتو قاتها تعارضت وقيمت في البيت . سارت ريماء وشميرام واتباعهما في طرق بابل حتى وصلوا اسوار المدينة الداخلية ومروا من باب المدينة تحت طاق معقود وما عتموا ان اجتازوا اسوارها الخارجية وجلسوا هناك على شاطئ الفرات وكان نسيم الصبا يلعب بالنفوس فيطربها ومما كان يزيد المشهد بهجة وسحرا اغاني السفانين واصواتهم الرخيمة فمعهم من كلن ينحدر في النهر بالمقاريف ومنهم من كلن يصعد بهنر الشرع او بالجر بالحبال . وكلن المريكون يصطادون البز والشبوط والبي وهم فرحون بمسرات الحياة الشظفة كلن فيهم من يصيد بالشرك ومنهم بالصنارة ... تشاهد هناك القفف وهي سفن مدورة مصنوعة من اخصان الشجر والخوص مطلية بالقار . و « الاكلاك » وهي سفن مؤلفة من قرب او « اجواد » منقوخة يربط بعضها ببعض بحبال من الياف النخل وفوقها خشب وهي تحمل البضاعات والغلات والفواكه اليابسة والرخام والصخر من

تتاج بلاد الشمال وفي كل كلك رجالات او ثلاثة او اربعة هم اصحاب ذلك المركب. واذا نظر المرء الى البر رأى قوافل التجار آتية من بلاد الفينيقيين حاملة العاج واواني الخبز والاصباغ والتحف والنفائس والاثواب « والاقمشة » الغالية الاثمان .

لم تبسط نفس شميرام برؤية هذه المشاهد . ولم ترمقها بنظرها إلا كرها او استخفافا . ومهما حاولت والدتها ريماء ان تلهيها او تطربها ازدادت انقباضا وتأوها وتفكرا في شمشو . فعجزت والدتها عن افراج الهم عنها فعمت راجعة بها الى البيت . واذا بجلبة عظيمة واصوات وقع حوافر خيل وبغال وقفعة دواليب عجالات وبمطار ينادي : افسحوا الطريق لملك الملوك ، لسيد الاقوام ، لسلطان الاقاليم ، قفوا تعظيما واجلالا لملك الرقاب ، للقبايض على مقدرات الشعوب ، لصديق الالهة وحبيب الارباب .

فكان الناس يخفون السير ويلجأون الى احدى زوايا الجادة او الطرق المتشعبة منها والذي لايقوون على احد الامرين كانوا يصطفون صفوا منظمين على جانبي الطريق او يخرون سجدا الى الاذقان . وكان الفلاحون يتركون حقولهم ويركضون لمشاهدة الموكب الملوكي .

مر الموكب بوقار وابهة بين تهليل وتصديده الجمهور احتفاء بالملك الراجع من القنص والصيد رجوع منتصر ظافر بعبد ان غلب عن عاصمته خمسة عشر يوما لهذه الغاية وكان اعد العدد وهيا الأسباب لهذه الحملة او الرحلة الى الفرات الاوسط .

جاءت طليعة الجيش الجرار وعقبها الملك جالسا في مركبة وفوق رأسه مظلة من نسيج مطرز بالاحمر والازرق والسائق في الجانب الايمن يقود الجياد ويعنها العثار وهناك خصيان في طرفي المركبة ويأيدونها مذبات لطرد الذباب وكانت مركبات الامراء تتلو مركبة الملك فمركبات الوزراء فرهط من الخيالة حاملين القنا : فالمشاة فالكلابون (فمربو الكلاب) ، فالخدم ، فالعقال وهي حاملة الاثقال والمعدات والخيام والصيد . وكان بين غنائم الصيد ثلاثة اسود وعدو من الغزلان وبعض الدببة وقرأ واحد ونعامة . وشيء كثير من الطيور كالخبارى ومالك

الحزبين (البشون) وغيرها .

وبين الأسود الثلاثة اسد كبير الجثة . حي يزأر زئيرا يردد صدادا فضاء
بابل الواسع . وقد صاده الملك برمية قوس هنت شيئا من قوته ثم صارعه
صراعا عظيما ، عرضت حياة الملك للخطر : فأتى الى فجده نفر من حاملي الرماح
إلا انه انتهرهم شجاعة واخذ من يد احدهم الرمح وغرز نصله في قفا الاسد
حتى شكته شكا في الأرض وصرع اللبث ثم اذن للجنود بالتقدم فاخذوا الاسد
ووثقوه وقادوه الى المعسكر وهم فرحون بيسالة ملكهم العظيم .

وعلى اثر هذا الفوز المين والنصر الباهر قدم الملك تقبلة شكر الى الالهة . فوقف
مامه كاهنان ويبد كل منهما كنارة Harpe وهما متهيان ليوقعا عليهما ترنيمة
الشكر : ثم اتى بالاسد ووقف الملك مع حاشيته ويبد القوس فقدم اليه
وزير كذا مترعة خرا مقبلة فذاقها ثم افرغها على الصيد والحال صبحت
الموسيقى بترنيمة الشكر .

وكان هذا الفوز احتفلة جميع الناس في المدن والقرى والساكن والاندية .
مرت تلك الجموع فرحت الطريق فضاقت برمعة فمطقت على طريق ثانية
تخلصا من هذا الازدحام . وبينما كانت سائرة استوقف انظارها وانظار جماعتها
السوق القائمة في احدى ميادين المدينة كانت تعرض فيها البنات للزواج :
والسمار يصيح بصوت جهوري واصفا جمال هذه ، وحسن تلك ، ومعدوا حسنات
الاخرى واخلقها وآدابها متفتنا في بيان مقومات الكياسة ماشاءت الفصاحة
والبلاغة . فتارة يطري الجمال ومؤثراته في الحياة وسيادته على القلوب وما
يولده فيها من الفرح والسرور وطورا يفضل عليه الاخلاق الحميدة وجمال
الاداب وما تورثه من السعادة في البيت بعد الزواج حسب البنت المعروضة في
تلك السوق . ومن وقت الى اخر كان ينادي معرفا ثمن السياق (المهر) الذي يجب
ان يدفعه الشاب الراغب في تلك الابنة الجميلة او البائنة التي تدفع عن الاخرى
التيمة الصورة للشاب الراغب في زواجها . وهناك رجل آخر يقبض مهر الجميلات
ويقنع منه بائنة عن التيمات وقد اكتظت ساحة الميدان بالشبان الراغبين في
الزواج وبالتفرجين من جميع الطبقات وكان الشبان يطوفون على البنات وينظرون

اليمن نظرات طويلة ، لا بل يتقدمون منهم ويقفصونهم فحفا دقيقا من قمة
الراس حتى اخضع القدم كأنهم يشربون السائمة او الخيل .

وكانت الابنة التي تميل الى احد الشبان تشير اليها بفمزاتها الفتاة سرا ،
وتومي اليها خلسة ممرية عما يكنه فؤادها من الحب والهوى . فالجميلات
منهن كن يتبحرن ويتباهين ويفازن الرجال تانهات دلا واساجات اذبال العجب
آتيات سحرا حلالا . وكانت اللعيمات يخفين بلباقة خاصة بالانثى ما ينهب
بتلك الدمامة فيزين وجوههن بوسائل صناعة التحسين اي بالدهن والصيغ
والطلاء والكحل والحضاب ، ويتنصنر ابتسامات زائفة ، وحركات وسكنات
كلزية ، لاختفى على عيون الشبان الناقدين ، والرجال الباصرين حتى انهم كانوا
يسمعونهن عرضا بعض قوارص الكلام فتشور الثائرة داخلن وتقبض نفوسهن
الما وجزعا من هذا الاستخفاف والاستهزاء لاعانات الطبيعة الجائرة التي
حرمتهن مظاهر الجمال .

فتأملت شميرام في السير وهي تنظر الى تلك السوق نظرة آسف منألم
وخاطبت امها قائلة: يؤلمني وايم الحق حال هذه البنات اللواتي يعن ويشترين في
السوق العامة كأنهن اسيرات او أمأ (عبدات) . ولا تذب لهن سوى أنهن ولدن
في طبقة العامة المدمعة ، فلو كن من الطبقات العليا لما عرضن عرض السلع .

فاجابتها والدتها : ما هذه الحال فيك يا بنيتي فانك تترمين من كل شيء
وتتقدين المتقدات والعادات وتنظرين الى الدنيا وما فيها نظرة شؤم . فهل يش
هذا المشهد ما يؤلم او يؤسف ؟ والذي اراد انا هو نظر كله فرح وجور وحب
وزواج وفيه تتحقق رغبات البنات والشبان واكبر ملذات الحياة فيجب ان
نضحك ونمرح في هذه السوق .

فلم تصر شميرام جوابا ولكنها لم توافق والدتها في قولها .

لندع شميرام وامها في طريقهما ونرجع الى بيتهما ونرى ما جرى فيه من
التدابير والمؤامرات في غيابهما .

غر شيطان الطمع تو ، الخادمة الوفية والنجبة المخلصة حتى اليوم فعدمتها
نفسها بسوء ، مدفوعة بمواعيد يروس الخلافة . وصممت ان تنزع بكل

الوسائل لتحمل سيدتها الفتاة على الاقتران بالكاهن الكلداني . فوقفت على باب الدار منتظرة مروءة من هناك لتفاوضه في الطرق الموصلة الى غايتهم . جاءها يروس فاقضت اليه بالحديث الذي جرى بينهما وبين شميرام واطلعتها على سر الحب المستحكم في قلب سيدتها ، وشغفها بآبن عمها واعراضها عن الاقتران يكهن له زوج غيرها ووقوفه على انشغال شمشو بحب حترآء بنت اجيبي الصراف ولكن ضيق يده عتبة كزود تحول دون خطبته لها . وهو ابي النفس عزيز الاخلاق لا يجنح الى مفاتحة ايها بالامر لئلا يسمع كلمة الرفض فتبس كرامتها .

واقترحت على يروس ان يمد شركا يصطاد بمذلك الفتى ويبعده عن الديار الى بلاد نازحة بابل الریح والتجارة ويتأمر على اغتياله في الاقطار الغربية او يضع عقبات في سيل رجوعه الى الوطن وينشر اخبارا كاذبة تسميه فاذا تقادم العهد على سفرة وثقت شميرام من عودته تداعى ببيان الحب في قلبها فيسهل آتئذ اقامة صرح آخر في هذا القلب يكون يروس الامر الناهي فيه والسائد عليه .

كان لهذه الالفاظ وقع عظيم في نفس الكاهن الكلداني الامارة بالسوء فودع تو وذهب مهرولا الى الهيكل وهو معكر في حل هذه المعضلة ومد شرك الهلاك لشمشو .

انقضى ذلك الليل وثلاث ارواح تصادم في الفضاء الاوسع في نزاع وجدال وهي روح شميرام العاشقة . وروح شمشو التائبة المضطربة . وروح يروس الظلمة العاتية .
يوسف غنيمه

(القطار والقيثارة)

انكر بعضهم ورود هذين اللفظين في كلام الاقدمين من السلف . قلنا : نعم . لكنهما جاءا في كلام مولدنا فقد ذكر القطار الشقندي (راجع مجلة المقتبس : ٢٩٨ و ٤٣٧) وذكر القيثارة السمودي في مروج الذهب (٨ : ٩١ من طبعة باريس) قال عنها : « لها اثنا عشر وترا » اهـ .